

## عصفة جديدة

لم يكن امرؤ القيس قد رأى الطماح فى قسطنطينية قبل تلك الليلة التى رآه فيها فى الوليمة الكبرى بقصر الأمير حنا، وما كانت أشد دهشته عندما رآه! فقد كان يظن أنه سيرى رجلاً لم يسبق له به عهد، فإن اسم الطماح لم يسبق إلى سمعه قبل ذلك، فكان يحسب أنه أحد بنى أسد الذين نزحوا إلى أرض الروم منذ أزمان طويلة وأقام فيما كبعض عمال الدولة أو بعض أتباع الجيش، فإذا به يرى رجلاً من أعدائه الذين ثاروا بأبيه الملك حجر، وهو من أقرب أصحاب منافسه الكرية عبيد بن الأبرص وممن يمتون بالنسب إلى عدوه الفظيع علباء ابن الحارث الكاهلى قاتل أبيه؛ وهو فوق ذلك كله ممن أصابتهم دماء الحرب التى شنت على بنى أسد، فقد قتل امرؤ القيس أخاه فى بعض إغاراته فى طلب ثأر أبيه. ولم يكن الطماح اسمًا له، بل كان لقبًا لنفسه ليستخفى به، فإنه لم يكن سوى يزيد بن قيس الكاهلى الأسدى.

ومنذ عرف امرؤ القيس حقيقة ذلك الرجل داخلته حيرة شديدة فى معرفة العلة التى دفعت الأمير حنا إلى اختياره ليكون معه فى حربه، ولم يستطع أن يدرك كيف أتى الطماح إلى قسطنطينية، ولا أين أقام. إنه كان بغير شك مقيمًا فى عاصمة قيصر منذ حين،

ولكنه لم يره مرة واحدة من قبل ، وساءل نفسه: أكان مستخفياً عنه  
عن عمد أم كان ذلك عفواً من غير قصد؟ وهل رضى حنا بصحبة هذا  
الرجل له أم كان مرغماً عليه؟ ألا يكون قد أمر باستصحابه أمراً؟  
ألا يكون قيصر قد أراد ذلك، أو أن تكون امرأة قيصر قد تقدمت  
به إليه؟

ثم بدا له رأى غير كل ذلك. ألا يكون ذلك الرجل الأسدى قد جاء  
وراءه يتأثر خطاه لكي يعمل على إحباط أمره وخيبة مسعاه؟  
ألا يكون قومه قد بعثوا به إلى مدينة قيصر لكي يتجسس عليه،  
ويرقب مبلغ نجاحه فى السعى عند قيصر، حتى إذا ما رأى أنه  
قد تهيأ له شيء من الفوز سعى فى إفساد تدبيره والكيد له؟

ما زالت هذه الخواطر تثور فى قلب امرئ القيس فى أثناء الولاية  
الصاخبة التى أعدها حنا احتفالاً بتمام أمره واستعداده للمسير  
بالجيش العرمرم إلى الشرق لغزو بلاد كسرى. ولكن تلك الخواطر  
لم تلهه عن التفكير فى صاحبه المسكين الذى لم تقع عنيه عليه  
بعد تلك الليلة التى ذهب فيها ليرى أمه فى قصرها على الشاطئ  
الآخر من البحر. فكانت صورته لا تزال تعاوده وتظل عليه من  
ثنايا أفكاره المضطربة، وكانت نشوة الخمر التى أقبل امرؤ القيس  
على شربها تزيد هذه الوسواس فى نفسه عنفاً، وهو كلما رآها  
مخيمة على عقله لجأ إلى كأس مترعة فعب منها، وحاول أن يجد  
فيها ما يدخل بعض النور إلى هذه الظلال، فلا يزداد بعد كل كأس  
إلا حزناً وإظلاماً.

وفيما هو يعانى آلام هذه الحال ويناضلها بوعيه الفاتر اقترب منه يزيد بن قيس (الطماح) وهو يبتسم ابتسامة خيل إليه أنها بسملة السعلاة من الجن إذا اقتربت من فريستها؛ فأراد أن يضع يده على موضع سيفه، وأن يهب واقفاً على قدميه للقاءه كما يلقي الإنسان عدوه، ولكن الخمر كانت قد تمشت في مفاصله فأرختها، ولم يستطع حراكاً، وحاول أن يتكلم فخرجت منه ألفاظ متعثرة مختلطة في نبرة وانية فاترة لا تبين. وكان الطماح أملك لنفسه وأحفظ لوعيه، فإنه لم يسرف في الخمر كأنما قصد ذلك قصداً لكي يملك عقله في المحاوره.

قال الطماح وقد جلس إلى جوار امرئ القيس: «أراك لم ترتح لرؤيتي يا أبا وهب. ألا لقد مضى الزمان ونبئت المراعى على مواقع قتالنا».

وكان في صوته وابتسامته تهكم وسخرية لم يخفيا على امرئ القيس، ولكنه تكلف التماسك وأجاب في لسان معوج: «وأين تركت قومك يا بن قيس؟ أما يزالون يهيمون في القفر فرعاً؟».

وكان ينتظر أن يرى أثر قوله في الرجل من ثورة وغضب ولكنه لم ير شيئاً من ذلك؛ فإن الطماح لم يجبه، بل زادت ابتسامته اتساعاً كأنما لم يسمع منه إلا فكاهة ومزاحاً، فزاد وسواس امرئ القيس اشتداداً، وأحس بالغضب يتقد في نفسه اتقاداً، وخاطبه بعد حين في لهجة أشد قسوة واعتداء، وكان يعلى صوته

في مد ومطمن أثر السكر؛ ويقطع حديثه بالضحكات الصارخة  
الوانية فقال: «أراك جئت إلى قيصر؛ لعلهم بعثوك إليه تطلب  
حمايته لهم ليأمنوا من فزعهم؟ أين المنذر؟ أين تركت المنذر؟  
لعله رفسكم رفسة ددهتكم بعد أن رأى ما رأى منكم! ها ها. أين  
عمرو بن مسعود؟ لقد سمعت أن المنذر قتله. ها ها. لقد سمعت  
أن المنذر أوقع به. وأسفاه عليه! لقد كنت أمني نفسي بضرب عنقه  
بيدي. ها ها ها».

ولم يستطع يزيد بن قيس أن يملك نفسه أمام هذه العاصفة،  
فاختفت ابتسامته وعلا الدم إلى وجهه، وقام غاضباً ينظر إلى  
امرئ القيس كأنه يريد أن يقاتله، فارتاح امرؤ القيس إلى رؤية  
ما ظهر عليه من الغضب، ونظر إليه ضاحكاً واستمر قائلاً:  
«ولكن المنذر إذا مضى في قتل بني أسد لم يترك لي منهم أحداً.  
ها ها ها؛ اذهب فاحمل رسالتي إليه. ها ها ها. قل له يدع البقية  
رهنًا لتكون للغالب منا يقتلها متى انتصر. قل له إنى سائر إليه  
بعد قليل».

فانتفض يزيد وقال؛ وهو يحاول أن يمسك ما بقي من صبره:  
«إنك إنما تسير في جند قيصر لبعض حروب قيصر كما نسير نحن».  
فدب الغضب إلى امرئ القيس وقال وقد زالت ابتسامته:  
«كذبت بل أسير كما يسير الملوك. سأذهب إليكم في جند من أمثالي  
أبناء الملوك. أبناء الملوك. أتسمع؟ وسيكون معي بعد حين قصير  
صديقي عمرو بن قمية، عمرو بن قمية. أتسمع؟».

فنظر الطماح إليه فى خبث وقال فى لهجة استخفاف:  
«عمرو بن قمية؟ نعم ذلك الفزارى الشريد».

فزاد غضب امرئ القيس وصاح مجيباً: «كذبت! بل هو  
ابن تيودورا. أتسمع؟ ابن الملكة تيودورا. سنسير معاً كما يسير  
أبناء الملوك أيها العبد».

وما كاد الطماح يسمع هذا القول حتى رأى فيه فرصته، فتكلف  
العودة إلى الهدوء، وضحك ضحكة عالية، وقال فى صيحة ساخرة:  
«عمرو بن قمية؟ عمرو ابن الملكة؟ يا لها من فكاهة! لقد سكرت  
سكرًا شديدًا يا أبا وهب».

فقال إليه امرؤ القيس غاضبًا هائجًا، وقال وهو يقترب منه  
مترنحًا: «أتسخر منى؟ أخرس أيها الأسدى الوضيع! نعم سأذهب  
مع صاحبى عمرو كما يسير أبناء الملوك. إنه الآن عند أمه، إنه  
اليوم عندها فى قصرها، ولكنه سيلحق بى إذا سرت، وسيعرف  
قومك عبيد العصا طعم السيف عن قريب».

فقام يزيد (الطماح) واقفًا فى وجهه وقال وهو يحاول كتمان  
ثورته: «سأحدثك إذا أفقت من سكرى يا جندج؛ أما طعم السيف  
فقد ذاقه أبوك حجر ابن أم قطام».

وكانت هذه الكلمة أكبر من أن يقدر امرؤ القيس على  
تحملها فى سكره، فأسرع إلى يزيد فلطمه بيده قبل أن يستطيع  
ردها عن نفسه، وأراد أن يرتد إلى الورا ليجرد سيفه لقتاله،

ولم يبال شيئاً مما حوله، ونسى أنه في وليمة عظيمة تجمع أشرف الروم وسراتهم وقوادهم، ولكنه لم يستطع أن يحفظ اتزانه في ارتداده إلى الوراء، فسقط إلى الأرض وهو يصيح ويهدد ويشتم، والطماح واقف إلى جواره ينظر إليه في حقد وخبث. واسترعت هذه الحركة العنيفة من كان قريباً منهما من القوم، فأسرع بعضهم إليهما وهم يترنحون في سكرهم حتى بلغوا مكانهما، وأسرعوا إلى امرئ القيس فرفعوه عن الأرض، وجعلوا يعيدون عليه ثيابه ويصلحون من هيئته، وهو لا يزال يسب ويعيد ألفاظه متلعمًا يقطع كلماته بالفواق والتعثر، ثم أجلسوه في مكان، وجعلوا يهدئون من ثورته، فارتدى على أريكة وقد اجتمع عليه أثر الخمر وأثر ثورته، فمال على ظهر الأريكة في غيبوبة تامة. والتفت الحاضرون إلى الطماح في شيء من الإنكار ونظراتهم تنطق بالاتهام واللوم، فأراد أن يدافع عن نفسه، فأخذ يقص عليهم قصة ما قاله امرؤ القيس له وما سبه به، حتى بلغ ذكر عمرو بن قمية وقول امرئ القيس إنه ابن الملكة، وأنه مقيم عندها في قصرها، فما كادوا يسمعون ذلك حتى ذعروا ونظر بعضهم إلى البعض كأنما قد وقعت صاعقة على مقربة منهم.

وأسرع واحد من القوم إلى حنا وكان صديقاً له، فأقضى إليه بما يدور في مجلس القوم في عقر داره وتحت سقفه، وأنذره بأن هذه الأقوال موشكة بغير ريب أن تبلغ الملكة، ويا لهول ما يتوقع من الملكة إذا سمعتها!

وما كاد حنا يسمع قول صديقه حتى غلبته صيحة نمت  
عما داخله من الفزع والسخط، وأشار إلى وجهه وصدره وبعلامة  
الصليب وقال: «حقاً إنه لفتى مشئوم».

وسار مسرعاً نحو الجمع المحيط بامرئ القيس وارتسم الدم على  
وجهه الصارم فلما رآه على الأريكة لا يعي، صاح في شبه صرخة  
اليائس: «أيها المشئوم! أيها المشئوم! هكذا خبرني كل من عرفك.  
أويوشك شؤمك أن يحل بداري؟».

\* \* \*

أفسدت هذه الحادثة نشاط اللاهين وعبث الماجنين. فلم يطل  
السهر إلا إلى منتصف الليل، وبدأ الجمع ينفض بعد قليل... وأخذ  
القوم ينصرفون أفراداً إلى بيوتهم، بين فارس على فرسه المطهم  
فى عدته الذهبية وبين أمير فى عربته العالية تجرها الخيول  
القوية تضرب الأرض بحوافرها فتتزع قطع الطريق وتحفر فيه  
أخاديد عميقة، وسار يزيد الطماح مع الأمير (تريبون) إلى قصره  
القائم على البوسفور، فدخل إلى غرفة فسيحة فى أقصى القصر  
تطل على صخرة عالية من سخور الشاطئ، وجعلا يتذاكران ما كان  
من الحديث فى بيت الأمير حنا، وهما فى مرح ونشاط واستبشار.  
قال (تريبون) وهو يفرك يديه مبتسماً: «إذا لقد عرفت سبب تلك  
الحظوة الطارئة التى نالها حنا».

فأسرع يزيد يجيب في يونانية صافية: «ولكنها كلمة البرق. تقبل سريعة وتختفى سريعة».

فضحك (تريبون) معجباً بخيال العربي وقال: «ولكن أتظن حنا يعجز عن تدارك هذا الأمر؟».

فصمت يزيد ونظر إلى الأمير ينتظر ما يتم به قوله، فعاد (تريبون) إلى الحديث في تفكير وخشية فقال: «لن تمضى عليه هذه الليلة بغير أن يكون قد دبر حيلة جديدة ليقابل بها موقفه الجديد، سيدبر مؤامرة من مؤامراته. سيفكر في وسيلة شيطانية من وسائله لمقابلة الملكة قبل أن تقابله إذا أعجزه أن يستميلها بتضحية جديدة. سيقاومها بسلاح لا يخطر لأحد ببال».

فقال يزيد: «ولكن المقادير قد مهدت السبيل أمامنا على غير انتظار».

فأجاب تريبون مسلماً: «حقاً إنها قد مهدت سبيلنا». فلقد كنا في حيرة لا ندري كيف نجد الثملة التي نصل منها إليه.

فقال يزيد في سرور ظاهر: «ولن تفيده حيلته هذه المرة. لقد صار الأمر بينه وبين الملكة».

وصمت لحظة وهو يبتسم ناظراً إلى (تريبون).

فغمز تريبون نحوه بعينه ضاحكاً فى خبث، وقال فى صوت هامس: «نعم والويل له! ويل لمن تقف فى وجهه تيودورا متمرة».

وصمت لحظة أخرى، ثم عاد يفرك يديه مسرورًا وقال: «لا بد للملكة أن تبادل بحركتها. وإلا....» وطقق بأصبعيه عند ذلك، ولم يتم كلامه.

فأطرق الطماح لحظة، ثم قال في تردد: «ولكن هل تصل هذه الأقوال إلى الملكة في الوقت الملائم؟».

فهز (تريبون) رأسه رافعًا حاجبيه كأنه يريد أن يقول: «إني واثق من ذلك».

وبعد لحظة قصيرة قال: «ولكن لا بد لنا من أن نقوم نحن بإيصال أخبار هذه الليلة إلى الملكة. إنني لا أشك في أنها قد عملت بما كان، فكل من كان حاضرًا قد أسرع فبعثت إليها بما سمع. هذا أمر لا شك فيه. ولكننا نحن أيضًا يجب أن نظهر إخلاصنا. سأذهب الليلة بنفسى إلى القصر لأقابلها وأحدثها بما سمعت كأننى لا أعرف أن الخبر قد بلغها. سأذهب إذا هدأت الأصوات بعد قليل».

لم يسبق للأمير (تريبون) أن رأى الملكة فى اضطراب مثل اضطرابها تلك الليلة عندما كان يلقي إليها ما سمع من حديث امرئ القيس فى منزل الأمير حنا. لقد عهدا تستطيع أن تخفى غضبها ومخاوفها تحت ابتسامة هادئة؛ ولكنها كانت عند ما لقيها تلك الليلة امرأة ضعيفة تلتمس المعونة وتتذلل وتتودد وتبذل.

لقد عرف (تريبون) عندما لقيها أنها تبذل كل شىء فى سبيل إخماد تلك الأصوات التى ترددت فى وليمة الأمير حنا، وأن انتقامها سيكون عظيمًا من ذلك العربى الذى كان يعرف سرها، ومن الرجل الذى أظله فى منزله.

أما الأمير حنا فإنه لما صار وحده بعد انصراف القوم مد يده وهم أن يخطر سيفه، فيضرب ذلك العربي المشنوم الذى يوشك أن يجر عليه مصائب كان قد ظن نفسه أمن منها، ولكنه أمسك وأعاد يده عن مقبض السيف، وخطرت له خاطرة من رأى جديد، فإنه يستطيع أن يبذل للملكة ذلك الشاب ضحية جديدة إذا أرادت مسالمته، فإذا لم ترد مسالمة كان إسرعه إلى قتله تضييعاً لسلاح قد يكون له خطره إذا ما عزم على النضال المر مع الملكة المتنمرة. صحا امرؤ القيس فى اليوم التالى من تلك الليلة العاصفة، ليلة الوليمة التى شهدها قصر الأمير حنا، على اضطراب شديد هز أنحاء القصر، فحراس من جنود قيصر تحيط بالقصر فى جلبة وعجيج، وآخرون منهم يدخلون إلى فنائمه وأبهائه يعبثون فى أثائه، ويستبيحون حرماته، باحثين فى الخبايا والخزائن فى عنف وعبث، ولم يستطيع حراس القصر ولا خدمه أن يقاوموا أو يمانعوا، فلم يكن رومانى ليجرؤ على عصيان أمر قيصر العظيم، وقد أمر قيصر بالقبض على الأمير حنا بعد أن بلغته أنباء مؤكدة عن خيانتة له وتأمرة عليه. وأخذ امرؤ القيس فيمن أخذ من أتباع الأمير لكى يعرض على قيصر ليرى فيه أمره.

لقد كانت عصفة جديدة من عصفات الأقدار بامرئ القيس. تلك الأقدار التى ما تركت له متنفساً فى الأرض، وما زالت تتعقبه حيثما سار، تمهله فى كل حين، فيوشك أن يبلغ مأربه،

حتى إذا ما حسب أنه قدر عليه، وظن أنه قد كاد يدرك مؤمله، نزعته منه نزعة قاسية وطرحته إلى حيث يعجز عنه، ويبقى ماثلاً أمام عينيه يملؤه حسرة ولوعة.

لقد تمثل له عند ذلك صدق قول أصحابه إن صفوه بالشؤم وإن أزعجهم منه ما يجره دائماً على من يحل بينهم من الشقاء، وذكر كلمة الأمير حنا في الليلة البارحة كأنه يذكر حلماً مبهمًا بعيداً، إن ناداه في صرخته اليائسة يقول له: «أيها المشؤم».

وبقى في قصر الإمبراطور أياماً في عزلة تشبه السجن، لا يصل إليه أحد إلا بعض حراس يحملون إليه طعامه أو يقومون بخدمته فيما يطلب إليهم أن يؤدوه، مما لا يعدو مطالب الحياة وضروراتها، ولكنه بقي في حيرة لا يدري من أخبار تلك العصفة الجديدة شيئاً ولا يعرف من مصيره فيها أمراً، وما كان أطولها من أيام ألحت عليه فيها المخاوف والهموم، وأحاطت به جيوش من الأوهام والذكريات لا تدع له راحة ولا سلاماً، حتى أتى إليه الحارس يوماً، فأشار إليه في صمت أن يتبعه. فقام وهو لا يدري ما هيأت له المقادير، وسار وراء الرجل وهو يسائل نفسه إلى أجله يسير؟ أم إلى فرجة وخلص؟ فأدخل إلى بهو فسيح يشبه البهو الذي استقبله فيه الأمير حنا عند أول مقدمه إلى المدينة مع صديقه عمرو. ولم يلهه ما هو فيه من خوف وهمٍّ عن تذكر ذلك الصديق المسكين الذي لم يره منذ فارقه لرؤية أمه، ولم يملك عندما خطرت

صورة عمرو في ذهنه أن امتلأ قلبه غيظًا وحقْدًا على تلك العاصمة  
الفسيحة المزدهمة القاسية، وما فيها من أسرار رهيبة وطباق  
مظلمة.

وتقدم يسير وراء الحارس في ذلك البهو العظيم حتى بلغ أقصاه  
فإذا به يرى عن يمينه حنية تتلألأ بما عليها من نقوش الذهب  
وما تحتها من الأثاث البديع والتحف الثمينة؛ وطلع عليه منها  
فجأة، كما يطلع شبح الراصد من وراء الثنية، رجل طويل القامة  
ينظر إليه بعينيه الزرقاوين الثابتتين، وعليه ثوب أرجواني اللون  
غطته نقوش الذهب وتألفت عليه الجواهر الوضاعة، فعرف أنه في  
حضرة قيصر.

\*\*\*